الجــزء الأول

١ ـ بين النيل والمتوسط.. البداية

تمنيت لو كان لى الوعى الكامل لحظة الميلاد، فقد ولدت عام ١٩٤٦، على مسافة عام واحد من انتهاء الحرب العالمية الثانية، وعلى مسافة مائة ميل تقريبًا من كبرى معاركها!

كانت البداية فى مدينة دمنهور عاصمة محافظة البحيرة فى دلتا مصر.

ومدينة دمنهور مدينة فرعونية قديمة يعتقد أنها كانت تضم معبدا لعبادة إله الشمس، الإله حورس، ثم تحور الاسم مع الزمن إلى ما هو عليه الآن ـ وأعتقد أن اسم المدينة لم يأت من كونها موطنا لمعبد إله الشمس، ولكن لأن الشمس ذاتها كانت بالغة السخاء مع المدينة وأهلها فأغبطتهم بمناخ معتدل، فجادت الأرض على أهلها بوافر المحاصيل الزراعية.

وأهل دمنهور، مثلهم مثل بقية المصريين، كانوا ولا يزالون، يتمتعون بروح متألقة، مشرقة تشع بالضياء من داخلها، فينعكس ذلك على صفاتهم، فهم أناس ودودون مبتهجون، ودائمًا يرون الجانب المشرق من الأشياء حتى فى اللحظات غير السعيدة من حياتهم. . ومن ناحيتى فقد أخذت نصيبا من شمس حورس والتى كانت قد أرسلت بأشعتها لتصافحنى لحظة ميلادى فامتلأت نفسى بالتفاؤل. . فأنا بذلك ابن حقيقى من أبناء مدينة دمنهور.

وكان أبى قد ولد فى الإسكندرية فى الخامس من سبتمبر ١٩١٣ لأبوين رزقا بأربعة أولاد وأربع فتيات. وكان للحرب العالمية الثانية دور فى مجرى حياته.

وقد شعر سكان الإسكندرية بالحرب نظرًا لقرب مدينتهم من جبهة القتال فى

شمال أفريقيا. وفى شهر مايو ١٩٤١ كانت قوات المحور تتمركز فى السلوم ومرسى مطروح، وكانت مصر متورطة بعمق فى هذا الصراع، فمن جهة كانت مصر من الناحية الرسمية أحد حلفاء بريطانيا تبعًا لمعاهدة سنة ١٩٣٦ بين بريطانيا ومصر، ومن جهة أخرى لم يكن المصريون سعداء باحتلال الانجليز لبلادهم. وفى نوفمبر ١٩٤٢ تغلبت قوات الفيلد مارشال برنارد مونتجومرى على قوات الفيلد مارشال أروين روميل فى واحدة من أكثر المعارك الحربية سفكا للدماء وهى معركة العلمين والتى تبعد إلى الغرب عن الإسكندرية بنحو ١١٠كم. وقد شكلت معركة العلمين ومعركة ستالنجراد، والتى وقعت بعد موقعة العلمين بوقت قصير، نقطة التحول الأساسية فى مسار الحرب. وقد دون ونستون تشرشلWinston Churchill فى مذكراته قوله «. . قبل العلمين كنا نبغى البقاء وبعدها أصبحنا منتصرين». وفى الوقت الحاضر توجد مقبرة عملاقة فى العلمين والتى أقيمت كنصب تذكارى لآلاف الجنود الألمان والإيطاليين والبريطانيين بالإضافة إلى جنود دول الكومنولث الذين قتلوا فى هذه المعركة.

إبان تلك الفترة. . تدهور الاقتصاد المصرى وعم الكساد وغادر كثير من أهل الإسكندرية مدينتهم، وكان والدى واحدا من هؤلاء، حيث هاجر من الإسكندرية، أو عروس البحر الأبيض المتوسط، إلى مدينة دسوق الأكثر أمنا، وأقام مشروعا تجاريا، كان الأول من نوعه فى المدينة وهو استيراد وتجميع الدراجات الآلية وغير الآلية، ثم التحق بعد ذلك بوظيفة حكومية. وبعد أن استقر فى مدينة دسوق أصبح والدى معروفا لدى مواطنى هذه المدينة، ومن ثم أقدم على الزواج، واقترن بوالدتى والتى كانت تصغره بعشر سنوات، وتم الزواج بالطريقة التقليدية التى كانت سائدة آنذاك، حيث لم تر والدتى عريسها المنتظر قبل أن يتقدم لخطبتها رسميا من عائلتها. وقد استمرا معا نحو خمسين عامًا إلى أن توفى والدى فى الثانى والعشرين من أكتوبر عام ١٩٩٢ عن تسعة وسبعين عامًا.

عائلة زويل عائلة كبيرة جداً، يتركز معظم أعضائها فى دمنهور والإسكندرية، وقد اشتهرت هذه العائلة فى دمنهور بصناعة القطن. وهناك أكثر من ١٢٠ عضوا من أعضاء العائلة فى دمنهور والإسكندرية يشغلون مناصب مرموقة مثل أساتذة الجامعة والقضاة وما إلى ذلك. وقابلت بعض أعضاء العائلة فى الاحتفال الذى

أقامته الدولة تكريما لى بعد منحى جائزة نوبل، علما بأننى لم أر كثيرين منهم قبل انتقالى إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

أما عائلة والدتى فهى أقل عدداً من عائلة والدى، ويتركز معظم أعضائها فى دسوق والمدن المجاورة. وكان لوالدتى أخت وثلاثة إخوة، وأنجبت والدتى بعدى ثلاث أخوات أخذن أسماءهن من أسماء جداتنا وخالاتنا وعماتنا، مثلما أخذت أنا اسم والد أبى، وقد حلت ألقاب حديثة محل أسمائهن القديمة، فحل الاسم «هانم» محل «نفيسة»، والاسم «سهام» محل «خضرة» و«نانا» محل «نعمة».

ومدينة دسوق هى موطن عائلتنا المقربة وإن كان أهل دسوق جميعا هم عائلتنا الأكبر. وكل العائلات فى المدينة تعرف بعضها بعضا، ويشاركون بعضهم بعضا فى كل مناسباتهم الاجتماعية ويؤازرون بعضهم بعضا. ولا أذكر أنه كان هناك بنك فى دسوق، ولكن كان الأهالى يكونون فيما بينهم «جمعيات» يساهم كل مشترك فى «الجمعية» بقدر معلوم من المال، فيتكون بذلك «رأسمال» مناسب يكون بمثابة «دعم مالى» لكل عضو من أعضاء الجمعية بالتناوب. ومراعاة شعور الآخرين مبدأ أساسى لدى عائلتى وجميع عائلات المدينة، فمن غير المسموح به، على سبيل المثال أن نرفع صوت المذياع إلى الحد الذى يكون مسموعًا خارج الغرفة التى يوجد بها المذياع وذلك طيلة الأربعين يومًا التى تلى وفاة أى واحد من الجيران فى المدينة، وقد شكل هذا المبدأ، مبدأ مراعاة الشعور الاجتماعى للآخرين والاهتمام بهم، سمة من سمات خطواتى الأولى فى دسوق.

وقد اكتسبت دسوق بحكم موقعها على النيل سمة مميزة، فالنيل هو جزء من التاريخ والتراث المصرى القديم. وهناك مقولة تعبر عن بعض ذلك وهى: «من يشرب من ماء النيل مرة.. لابد أن يعود إليه ليشرب مرة أخرى..» وهذا وصف تعبيرى يوضح سلوك المصريين واستعدادهم لاستقبال ضيوفهم بالود والترحاب.

وينسب إلى الفيلسوف الإغريقى هيرودوت (٤٨٤ ـ ٤٢٥ قبل الميلاد) قوله إن «مصر هبة النيل»، فنهر النيل نهر عجيب يدعو إلى الإعجاب والتأمل، وقد كثرت بشأنه الأساطير منذ زمن الإغريق وحتى العصور الوسطى، ذلك أن منابعه وانتظام فيضانه السنوى كانا من الظواهر العجيبة التى شغلت فكر الفلاسفة والجغرافيين منذ القدم، فقد ظل هذا النهر يتدفق طيلة دهور طويلة بنفس الانتظام. وقد انعكس هذا

الخلود والتدفق بالخير والعطاء الأبدى على طبيعة وصفات الشخصية المصرية . . فهى شخصية معطاءة بلا حدود .

وشأنى شأن أى طفل من أطفال دسوق، كنت أمر على الطريق الموازى للنيل ذهابا وإيابا مرات لا تعد ولا تحصى. وطريقنا هذا طريق مميز يتبع خطوات سير النيل وجريانه، من دسوق حتى مدينة رشيد. وقد ذاع صيت مدينة رشيد بفضل حجر وجد فيها وأخذ اسمها «حجر رشيد» عثر عليه فى سنة ١٧٩٩م، ويقبع هذا الحجر الآن فى المتحف البريطانى فى لندن. وقد نقش على هذا الحجر قرار أصدره رئيس الكهنة فى منف بمناسبة الاحتفال بالذكرى الأولى لجلوس فرعون مصر، بطليموس الخامس (حوالى ٢٠٠ قبل الميلاد) يعترفون فيه بالجميل لهذا الفرعون. ومدينة رشيد ميناء مهم استخدمه آلاف التجار والبعثات الدبلوماسية والرحالة فى الدخول إلى مصر، ومنه يستقلون البواخر النيلية أو الطريق البرى ليصلوا إلى القاهرة وغيرها من مدن مصر وقراها. وكان هؤلاء الزوار يتوقفون فى مدينة دسوق، فى أثناء رحلاتهم، للراحة أو التجارة والتزود بالمؤن.

ولاتزال مدينة دسوق تحتفظ بمكانتها المهمة هذه، بالإضافة إلى أهميتها الدينية - ففى وسط المدينة يوجد مسجد سيدى إبراهيم الدسوقى أحد الفقهاء المصريين وأحد متصوفيها، وقد كان تلميذاً لصوفى شهير آخر وهو سيدى أحمد البدوى ذائع الصيت والذى يحتفل به سنويا وبخاصة فى مدينة طنطا، حيث يوجد مسجده المسمى باسمه.

ولمسجد سيدى إبراهيم الدسوقى أهمية خاصة فى حياتى، فقد حدد هذا المسجد معالم طفولتى المبكرة، فقد كنت ورفاقى من الأطفال نجد أنفسنا منجذبين إلى المسجد للصلاة والمذاكرة، وقد شكل هذا المسجد بالفعل نواة للدراسة الجدية فى ذلك العمر، والمعروف أن دور المسجد فى الإسلام لم يقتصر على أداء الصلوات فقط، وإنما كان للتعليم والدراسة أيضا. وللمسجد حرمة وقدسية خاصة، وبالإضافة إلى عناصره المعمارية الجميلة من قباب وأعمدة ومآذن، فإن المسجد يتألق هيبة واحتراما. وفى خلال شهر رمضان من كل عام كنت أتوجه مع أصدقائى بعد الإفطار إلى المسجد لأداء الصلاة وبعد ذلك نتوجه سويا إلى بيتنا أو أى من

بيوت هؤلاء الأصدقاء، ونظل نستذكر دروسنا حتى مطلع الفجر، ثم نعود إلى المسجد لأداء صلاة الفجر. ومن ثم فقد شكل المسجد محور حياتى وحياة أهل المدينة كلها، وكان بمثابة القوة الجاذبة لنا جميعا على العمل والحياة معا فى جو من التناسق والوئام. .

ويتفرع من ساحة مسجد سيدى إبراهيم الدسوقى عدد من الشوارع، يقع منزلنا فى واحد منها على بعد أمتار قليلة من المسجد، ومن ثم كنا نسمع بجلاء صوت المؤذن للصلوات الخمس ونحن فى منزلنا. ولصلاة الجمعة مكانة خاصة فى الإسلام، وكانت أسرتى تشجعنى على أداء صلاة الجمعة بانتظام. وكان للمسجد دور إيجابى فى حياتنا وسلوكنا، ولا نتذكر أننا سمعنا أن واحداً من رفاقنا كان يتعامل مع المخدرات أو ما شابهها، وربما يكون بعضنا قد حاول أن يجرب كيف يدخن سيجارة، وإن حدث ذلك، فلم يكن على مرأى من والديه أبدا. ولم نر أو نسمع عن مظاهر العنف والقسوة فى الشوارع، فقيم وأخلاقيات المسجد النبيلة قد أحاطت المجتمع والبيئة بأسرها بسياج من القيم والأخلاق الفاضلة انضبطت به معاملات الناس وعلاقاتهم بعضهم ببعض. وإننى أتذكر تمامًا مشهد غروب الشمس فى أيام شهر رمضان المعظم، والناس وهم يسرعون الخطى لمنازلهم، وصوت المؤذن الهادئ يدعو للصلاة، وقد أغلقت المحلات التجارية أبوابها استعداداً للإفطار، وذلك قبيل انطلاق مدفع الإفطار بوقت قصير.

كان أصحاب الدكاكين حول المسجد يعرفون اسمى كما يعرفون أبى وعائلتى، وكان بوسعى أن أشترى ما أريد من البقالة على سبيل المثال وآخذه دون أن أدفع ثمنه على الفور، لأن والدى سوف يدفع ثمن ما اشتريت. كان هناك شعور عام بالطمأنينة والثقة والأمانة. . والذى شكل سياجا من القيم انضبط به سلوك المجتمع كله. وأتذكر أننى كنت معتادا أن أقضى بعض الوقت جالسا على دكة خشبية مع «عم حمودة» البقال، وكان والدا لأحد أصدقائى ويدعى محمد، وكان هذا الدكان على الجانب الآخر من الشارع الذى نقطن فيه. . وكم سعدت واستمتعت بحكمة ونصائح هذا الرجل، والذى كنت أجله وأقدره. . وكان يحبنى كواحد من أولاده. .

وكأطفال صغار كنا منجذبين للإيمان، وكنا نجد التشجيع والعون المستمر من إدارة المسجد لنا على هذا السلوك القويم. وكنا نعيش فى ظل تعاليم الدين البسيطة

والسمحة والمستنيرة وليس فى ظل التشدد والجمود الذى ظهر فيما بعد . وقد سمعنا مرارا عن أهمية العلم والمعرفة ، والذى انعكس على أسلوب حياتنا ، وكم تكرر على مسامعنا القول بأن أول بلاغ أو أمر تلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم ، من السماء هو «اقرأ» . وقد باركت أسرتى هذا الاتجاه وشجعتنى على السير فيه ، ولم يكن للتشدد والجمود فى التفكير والسلوك مكان فى حياتنا بصفة عامة .

* * *

مرت الأيام ونحن فى دسوق ، ولم يرد فى خاطرى أن أحظى بما يحظى به بعض شباب اليوم ، فلم نفكر ، على سبيل المثال ، أن نقضى عطلة الصيف فى أحد مصايف أسبانيا ، أو أن أذهب إلى المدرسة وأنا أقود سيارة فاخرة B.M.W ، أو أتعامل مع الدروس الخصوصية . وحينما أشاهد أولادى الآن يأخذون دروسا فى السباحة والرسم وكرة السلة وكرة القدم والكمان ، أشعر بأننى حينما كنت فى مثل سنهم كنت أعيش فى كوكب آخر ، صحيح أننا كنا نمارس لعبة كرة القدم ، ولكن باستخدام كرة صنعناها من بعض جواربنا القديمة . . وعموما فقد انحصرت كل هواياتى فى القراءة والاستماع إلى الموسيقى وأحيانا لعبة الطاولة والورق وكانت كل تنقلاتى أو رحلاتى محصورة فى نطاق لا يزيد على ١٠٠كم بعيداً عن بيتنا . وقد انحصرت جل طاقات الحياة فينا فى حب الوالدين وثقتهم فىّ ، والحياة الأسرية السعيدة الهنيئة والتى نعمنا بظلها وهى أسرة تنتمى إلى الطبقة الوسطى .

ولا أتذكر ، حتى بعد أن كبرت ، أننى قد عوقبت إلا فى حادثة واحدة ، فقد ظننت أننى قادر على قيادة السيارات مادمت أعرف الأساس النظرى لذلك ، وذات يوم كانت سيارة خالى واقفة بجوار ترعة صغيرة ، وقررت أن أخوض تجربة قيادة السيارة دون أن أفطن إلى أن النظرية شىء وتطبيقها شىء آخر ، ومن ثم فقد كادت السيارة تغوص فى الترعة ، ولولا عناية الله تعالى ، وأن فى العمر بقية لكنت فى عداد الموتى - وقد نلت ما استحققت من والدى ، علما بأننى قد اكتسبت منه خبرات عملية كثيرة منها ركوب الدراجات ، والتى لم أزل أستمتع بها حتى اليوم - ولا أعرف لماذا لم أطلب منه أن يعلمنى قيادة السيارات ، وقد يرجع ذلك إلى أننى لم أكن أتوقع أن أمتلك سيارة وبالتالى فلست فى حاجة إلى تعلم هذا الفن .

والدى رجل مخلص ، وبالإضافة إلى ذلك فقد جمع خصلتين أخريين ، أرجو

أن أقتفى أثره فيهما طوال حياتى، فقد كان شديد الإخلاص لعمله ولأسرته، كما أنه علمنا جميعا كيف نعيش فى بهجة وسعادة. . واستمر على هذا الحال حتى آخر يوم رأيته فيه، وذلك قبيل وفاته بوقت قصير، وكنت وقتذاك مقيما فى الولايات المتحدة الأمريكية، وجئت لزيارته مرورا بأوروبا. وكان يعتقد أن الحياة قصيرة ويجب الاستمتاع بها. وقد طبق ذلك فى حياته حيث استمتع بالفعل بكل أيامه مع أصدقائه ومعارفه. ولوالدى صفات تدعو للحب والاحترام، فقد كان محبوبا من أصدقائه ومعارفه، وكانوا جميعًا معجبين به ويكبرونه ويجلونه، وأنا بالفعل معجب به ومقدر لحكمته تلك، وهى أن المرء يجب أن يتعلم فن الحياة أى كيف يستمتع بأيامه فى رحلة حياته. وربما كان أعظم شىء تعلمته من والدى هو أنه لا يوجد تناقض البتة بين الحب الشديد للعمل والإخلاص له وبين حب الحياة والاستمتاع بها.

واتسمت والدتى بالورع والتقوى وحرصها على أداء الصلوات الخمس فى ميعادها. وهى بالفعل اسم على مسمى، فاسمها روحية، وهى روحانية بكل ما تعنى الكلمة. وكانت والدتى فى الثامنة عشرة من عمرها عندما تزوجت من والدى ـ وتقول شهادة ميلادها إنها ولدت فى الثانى من فبراير سنة ١٩٢٢ وهى الآن تزيد عن الثمانين من عمرها المديد. وهى سيدة وقورة وحنون وقد كرست حياتها لتربية ورعاية أبنائها.

وحتى يومنا هذا فهى قلقة علينا جميعا، وعلىّ أنا بالذات، وقلقها هذا يكون مصحوبا بفيض من الدموع. وهذا التفانى والحب الشديدان لأبنائها والمتواصل منذ أن كانت فى الثامنة عشرة وحتى الثمانين من عمرها إنما يعبر بصدق وجلاء عن نفس بطولية وخصوصا على مقاييس يومنا هذا ـ وقد تمتعت والدتى بقدر كبير من الذكاء والإدراك البديهى مع أنها لم تتلق تعليمًا نظاميًا، واعتبرت أن وظيفتها الأساسية هى رعاية الأسرة وإدارة شئون المنزل فى جو عائلى ينعم بالحب والاستقرار، وكانت محور الأمن والطمأنينة والرضا فى البيت، وكانت، بالتأكيد القوة الدافعة التى ساعدتنى على التفوق فى دراستى.

التحقت بمدرسة حكومية واجتهدت لأصل إلى أحسن ما يمكن، وقد سعدت

أسرتى بذلك . وكان نظام التعليم فى مصر نظامًا ممتازًا يقوم على مبدأ المنافسة الشريفة فى بيئة اجتماعية متجانسة . وحظى المعلمون بمكانة بالغة الاحترام والتقدير من تلاميذهم والمجتمع بأسره ، وانعكس ذلك على العلاقة بين التلميذ وأستاذه ، التى كانت علاقة أصيلة ومشجعة وليست ملتفة حول الدروس الخصوصية لغاياتها المادية ، وكان التعليم يمثل قيمة اجتماعية عليا حظيت باحترام وتقدير المجتمع كافة . وتمتع المتفوقون من التلاميذ بمكانة اجتماعية مرموقة من كافة المجتمع ، وكان الحديث يجرى على ألسنة الناس فى دسوق بأن «فلان الفلانى» تلميذ متفوق ، فيثنى عليه السامعون ثناء جميلا ، فالتفوق فى الدراسة يتبوأ أصحابه مكانة اجتماعية عالية ، وقد يؤهلهم لمصاهرة عائلات مرموقة . وعموما فإن ذاكرتى عن التعليم فى زمانى تزخر بصور إيجابية تفوق أية صور سلبية فى هذا المجال .

أما أسوأ شىء لا يزال عالقا بذاكرتى عن نظام الدراسة فهو كثرة الحفظ عن ظهر قلب بعض الموضوعات فى العلوم الإنسانية أو اللغويات ، وكانت هذه الموضوعات تدرس بأسلوب جاف وصارم . فعلى سبيل المثال كان يلزم التركيز على حفظ أسماء الأعلام كاملة مثل : محمد بن رشدى بن على بن الخليف . . إلخ ، ولكن ما هو الشىء المبهر والمهم الذى قام به؟ . . ليس ضروريا!

ومن ناحيتى فقد كان اهتمامى منصبا دائمًا على الموضوعات التحليلية ، مع الرغبة فى السؤال : لماذا وكيف؟ وقد يتعجب البعض إذا ما عرف أن أكثر هواياتى الممتعة هى قراءة التاريخ ، ولدى مكتبة تضم العديد من كتب التاريخ المتنوعة والتى أستمتع بقراءة موضوعاتها استمتاعًا كبيرًا ، الشىء الذى لم أستمتع به عندما كنت يافعًا .

وأما الموضوع الآخر الذى لم أسعد به ولم أحبه فهو أسلوب العقاب البدنى الذى كان متبعًا فى المدارس الابتدائية ، صحيح أن هذا العقاب لم يكن قاسيًا أو مؤذيا جسديا للطلاب الذين يقع عليهم هذا العقاب ولكن الفكرة كانت مهينة . . إنه سلوك لم يكن ليتفق مع رسالة ووظيفة المدرسة ، أو سلوك المعلم وما كان يجب أن يكون عليه فى تعامله مع تلاميذه ، وحينما كان يحدث تصرف غير لائق من بعض التلاميذ كان بعض المدرسين يضربونهم . وأذكر ذات مرة أن الأطفال كانوا لا

يحبون أحد مدرسى اللغة العربية، وقد قررنا جميعًا (ولا أتذكر كيف حدث ذلك) أن نعمل شيئًا يغيظ هذا المدرس وعندئذ استشاط هذا المدرس غيظا وفقد حلمه صفعنى على وجهى. وحينما علم والدى بهذا الموقف ساءه ذلك، خصوصا أنه يعلم أننى طالب مجتهد، وتوجه إلى المدرسة وتقدم بشكوى إلى ناظر المدرسة وتسلم والدى اعتذاراً من ناظر المدرسة عن هذا الخطأ.

وفى المقابل كانت هناك أمور إيجابية عديدة منها أننا كنا نتمتع بقدر من الحرية، فكنا نجرى ونلهو فى فناء المدرسة لنفرغ بذلك من طاقاتنا ونجدد نشاطنا.

وكان من عادتى فى ذلك الوقت أن أستغل الأجازة الصيفية فى دراسة مقررات العام المقبل من الدراسة، وكنت انتظر بشغف ولهفة العودة إلى الدراسة والمدرسة. وكان من أحلامى، حتى وأنا طفل صغير، أن ألتحق بالجامعة، فالجامعة كانت بالنسبة لى شيئًا غير عادى وذلك بسبب ولعى وحبى للعلم والمعرفة، بالإضافة إلى أن الجامعة كانت تمثل قيمة اجتماعية كبرى من قيم المجتمع وقتذاك. وكان والدى قد حصل على شهادة دراسية متوسطة تؤهله للالتحاق بإحدى الوظائف الحكومية، وعلى أيام والدى لم يكن لطالب علم أن يلتحق بالجامعة عموما ما لم يكن والده من ملاك الأراضى أو الأثرياء أو باستخدام النفوذ، وقد تغير كل ذلك بعد سنة ١٩٥٢.

* * *

لقد أطاحت ثورة الضباط الأحرار بالملك فاروق وأتاحت فرصًا جديدة لشباب مصر. كنت وقتذاك فى السادسة من عمرى وأتهيأ للالتحاق بالصف الأول الابتدائى، وفى إحدى خطبه، أعلن الرئيس جمال عبد الناصر، قائد الثورة، أن كل المصريين سواسية وأنهم متساوون فى الحقوق والواجبات.. مما يعنى أن لكل مواطن ابن الفلاح وابن رئيس الجمهورية - الحق فى دخول نفس الجامعة.. وقد أدركنا فى ذلك الوقت أننا قد دخلنا بالفعل فى عصر جديد مفعم بالآمال المشرقة.

وفى العاشرة من عمرى، سنة ١٩٥٦، كنت متحفزا إلى أبعد الحدود لرؤية الرئيس جمال عبد الناصر، ومن ثم فقد قررت أن أرسل له خطابا.. قلت فيه: «.. ربنا يوفقك ويوفق مصر..».

وفى الحادى عشر من يناير ١٩٥٦ تسلمت من الرئيس عبد الناصر ردا على خطابى ومازلت أحتفظ بخطاب الرئيس حتى اليوم، وأتذكر مدى الإثارة والرجفة التى سرت فى بدنى وهزت مشاعرى هزا عنيفا لدى رؤيتى لاسمى وقد خطته يد الرئيس، ثم السطور المعبرة وكأنه كان يتوقع مستقبلى العلمى ويحثنى عليه، وفيما يلى نص الخطاب :

ولدى العزيز أحمد

تحية أبوية وبعد

تلقيت رسالتك الرقيقة المعبرة عن شعورك النبيل فكان لها أجمل الأثر فى نفسى وأدعو الله أن يحفظكم لتكونوا عدة الوطن فى مستقبله الزاهر وأوصيكم بالمثابرة على تحصيل العلم مسلحين بالأخلاق الكريمة، لتساهموا فى بناء مصر الخالدة فى ظل الحرية والمجد.

والله أكبر والعزة لمصر

وفى ذلك الوقت كنت قد أخذت أستمع لأغانى أم كلثوم عن طريق خالى العزيز لدى رزق، وكان صديقا لوالدتى، وكانت هى فى منزلة الأم بالنسبة له، وخاصة بعد رحيل والدته. وكان خالى رزق وقت ذاك يقطن فى نفس المبنى الذى كنا نعيش فيه. وخالى رزق رجل عصامى، علم نفسه بنفسه، لم يذهب إلى الكلية ولكنه كان قارئًا نهمًا. وقد اكتسبت منه نهج القراءة الانتقادية للصحف، وعلمنى فى بداية الأمر كيف أقرأ ما أقرأ بعين فاحصة، وكيف أنفذ ببصيرتى إلى مغزى ما قرأت. . وكان خالى رزق، مثله مثل والدى، رجلا محبوبا من الناس وعلى علاقة حميمة بهم.

ومن أبى وأمى تعلمت كيف أحيا وأعيش وقتى الحاضر، ومن خالى تعلمت التطلع إلى المستقبل.

وبهدف الترويح عنى وإدخال البهجة والسرور فى نفسى، كان خالى رزق يصطحبنى معه فى رحلاته إلى القاهرة لحضور حفلات أم كلثوم الغنائية، تلك

السيدة التى احتلت بعد ذلك مكانة بارزة فى حياتى، وإذا ما كان هناك شىء محدد له دور ثابت فى إدخال البهجة فى نفسى وخاطرى، فهو أم كلثوم، تلك السيدة التى جاءت من قرية طماى الزهايرة، القريبة من المنصورة، وصعدت لتصبح سيدة الغناء العربى. وقد غنت أم كلثوم أغانى متنوعة شملت قصائد لكبار الشعراء الكلاسيكيين، وأغنيات عاطفية ودينية ووطنية. وبدأ إعجابى وتقديرى لأغنيات أم كلثوم عندما كنت فى المرحلة الإعدادية، وكنت وقتذاك فى حوالى الثالثة عشرة من عمرى. وخلال سنوات دراستى فى مصر، كنت أحرص على أن يكون المذياع بجوارى وأبحث عن صوت أم كلثوم عبر الأثير فى كل محطات الراديو، كنت أعرف ميعاد إذاعة أغنياتها فى المحطات المختلفة مثل صوت العرب وإذاعة القاهرة، والشرق الأوسط.. إلخ، وكنت أجعل صوت المذياع بالقدر الذى يشكل صوت أم كلثوم خلفية هادئة فى أثناء عملى فى غرفتى.

وتساءل ذات يوم الفنان عمر الشريف عن سر ارتباطنا بصوت أم كلثوم إلى هذا الحد، وربما كان السبب هو أن كل واحد فينا يسمع قصته، فى أغنياتها، هذا بالإضافة إلى حالة الطرب والنشوى التى نكون فيها عند سماع صوت أم كلثوم. ومن ناحيتى فإننى أتذكر معظم حفلاتها الغنائية وبخاصة تلك التى أقامتها فى سنة ١٩٦٤ وغنت فيها «أنت عمرى». وقد شعرت أنها قد أطربت فى تلك الليلة كل مصر وكل الشعب العربى، وكانت كلمات الأغنية معبرة وقوية. وكانت هذه الأغنية، أنت عمرى، الأولى التى لحنها لها الموسيقار محمد عبد الوهاب، وهو معروف بميله إلى التجديد فى ألحانه، أما أم كلثوم فكلاسيكية، وبالتقائهما فى هذه الأغنية كانا قد وصلا القمة، قمة الغناء العربى.

ومع حبى وولعى بأم كلثوم كنت أهتز طربًا عندما يصطحبنى خالى رزق لحضور حفلة من حفلاتها، والتى كانت تقيمها فى الخميس الأول من كل شهر فى موسمها الغنائى، وكانت حفلاتها تذاع على الهواء مباشرة وكانت الشوارع تكاد تكون خالية فى أثناء الحفلة. كانت تغنى فى الحفلة ثلاث وصلات، كل وصلة هى بمثابة حفلة فى حد ذاتها. وأعرف كل التفاصيل الخاصة بأغانى وحفلات أم كلثوم من حيث التلحين الموسيقى والقصائد الشعرية، وحتى بعض اللمسات التى كانت تضفيها أم كلثوم بنفسها على الكلمات أو الألحان فى أحيان مختلفة. ومكانة أم كلثوم عند

المصريين والعرب تشبه مكانة موزارت وبتهوفن عند الغربيين وقد حزنت عندما ماتت أم كلثوم مثلما حزن عليها الملايين من عشاق فنها . وإذا كانت أم كلثوم قد اختفت بجسدها فإن صوتها لا يزال حيًا بيننا ولا تزال بعض أغنياتها الكلاسيكية مثل «الأطلال» و«رباعيات الخيام» و«أنا فى انتظارك» وغيرها تشكل جزءاً مهما من وجدان بل وحياة الملايين اليومية ، ليس فى مصر وحدها ولكن فى كل مكان على سطح الأرض .

منذ أربعين عامًا وأنا أستمع وأستمتع بصوت أم كلثوم ، وقد أسهمت فى التأثير على وجدانى وأحاسيسى طوال هذه الفترة ، ولدى فى مكتبى بكالتك جهاز تسجيل أستمع من خلاله لأغانيها وأضع صورتها على مكتبى بجوار صور زوجتى وأولادى ، وحتى فى الأوقات التى أكون فيها مثقلا بالعمل ، وفى وجود أربع سكرتيرات ، وفاكسات ، وبريد الكترونى مع العالم كله . . وسط كل ذلك فإننى أستمع إلى أم كلثوم وأسترخى على خلفية من صوتها الهادئ ، ويكفى أن أسمع أغنية «يا مسهرنى» تلحين الموهوب سيد مكاوى . وفى الآونة الأخيرة قامت إحدى الشركات فى أمريكا PBS بإعداد سجل وثائقى لحياتها وأعمالها يعكس التأثير الضخم لصوتها حتى خارج مصر .

وفى واقع الأمر ، فإن الخلفية الموسيقية لأغانى أم كلثوم لم تشتت أو تصرف فكرى عن العلم والإنتاج ، بل على النقيض من ذلك فإن هذه الخلفية تساعدنى على الاستمرار فى عملى لساعات عديدة وأنا فى قمة السعادة والابتهاج . وأنا بطبيعتى محب للدراسة مخلص لها ، وكما كانت تقول والدتى دائمًا فأنا شغوف بالتعلم متلهف لأن أتعلم شيئًا جديداً ، وربما تنبأت العائلة بمستقبلى من اللافتة التى علقتها على باب غرفتى باسم «الدكتور أحمد» وكنت وقتذاك فى المدرسة الإعدادية . وكثيراً ما كان يأتى والدى إلىّ فى غرفتى ويقول لى : رفقا يا بنى بنفسك ، لا تقتلها بالمذاكرة ، ولكنه من الناحية الأخرى كان يقول لى مازحا إذا ما حصلت على ٩٨ درجة من مائة فى الامتحان : وماذا حدث يا بنى للدرجتين الأخريين؟ كانت لى غرفة صغيرة فى البيت ، وكانت فى غاية التنسيق والترتيب . وفى اللحظات التى كنت أستريح فيها من المذاكرة كانت أسرتى تزورنى وقد نتناقش فى بعض الأمور العائلية .

* * *

كانت الدراسة فى المرحلة الثانوية دراسة أكاديمية مركزة تعتمد على برامج نظامية وبعض النشاطات التى يقوم بها الطلاب خارج حجرات الدرس. ويبدأ اليوم الدراسى بتجمع الطلاب فى الصباح فى فناء المدرسة، ورفع العلم، ثم ننشد جميعا النشيد الوطنى وفيه نظهر فخرنا بوطننا بهدف إكساب الطلاب الثقة بالنفس واحترام الذات والاعتداد بها، ثم تبدأ دروس الحصص الأكاديمية. وبجانب الدراسة الأكاديمية كان بعض الوقت مخصصًا لممارسة الهوايات، ومن ناحيتى فقد شاركت فى النشاط الفنى والتصوير الفوتوغرافى. وكان هناك نوعان من أعمال التصوير الفوتوغرافى شاركت فيهما، أحدهما يشمل التدريب على التقاط صور الأصدقاء وتحميضها، ومازلت أحتفظ ببعض تلك الصور، والثانى هو تكبير الصور الشخصية «البورتريهات» لبعض المشاهير، فكنا نأخذ على سبيل المثال، صورة شخصية صغيرة للرئيس جمال عبد الناصر، بطل ذلك العصر ورمزه الدال عليه، ونتدرب على كيفية وطريقة تكبيرها يدويا، وذلك بتقسيم الصورة إلى عشرين أو ثلاثين مربعا، ونستخدم أقلام الفحم لرسم وتظليل الصورة، وفى النهاية نحصل على صورة مكبرة تثير الإعجاب.

كانت المنافسة الأكاديمية صعبة، ذلك أنه فى نهاية السنوات الثلاث للدراسة فى المرحلة الثانوية، كان امتحان الثانوية العامة يشمل أرجاء الدولة وفيه يتنافس جميع الطلاب على مستوى الدولة كلها، وليس على مستوى الفصل أو المدرسة، ويحدد المجموع الكلى للدرجات التى يحصل عليها الطالب الجامعة والكلية والقسم الذى سوف يلتحق به. ويختلف هذا النظام عن نظيره فى الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال، حيث يختار الطالب فى الولايات المتحدة الأمريكية المسار الدراسى والمواد العلمية التى يريد أن يدرسها، أما فى مصر فمجموع الدرجات فى الثانوية العامة هو الذى يحدد كل شىء للطالب، فالطلاب ذوو المجموع الكلى الأعلى يتم اختيارهم للدراسة التى تؤهلهم للعمل فى الوظائف المهنية المتميزة.

فى خلال السنة النهائية لدراستى الثانوية أصبحت حياتى أكثر صعوبة بسبب ضغط الامتحان المنتظر، إلا أننى كنت هادئ النفس بسبب تفوقى الدراسى طيلة السنوات السابقة كلها. وكنت مولعا بحل مسائل الميكانيكا والفيزياء والكيمياء

والمسائل التحليلية، كما كنت أستمتع بشرح وتفسير بعض المسائل التى يحتاجها الزملاء فى الفصل.

ومن الناحية العملية كنت شغوفًا ومهتمًا بالماهية التى تعمل بها الأشياء.. ولكم ساءلت نفسى: كيف تعمل الأشياء؟ ولماذا تتحول بعض المواد الصلبة كالخشب إلى غاز عند احتراقها؟ فتحول المواد من صورة لأخرى كان يثير فضولى بدرجة كبيرة.. وذات يوم وضعت قطعة صغيرة من الخشب فى أنبوبة اختبار، وسددتها بسدادة من فلين أوصلتها بأنبوبة على شكل حرف L، ثم أحرقت قطعة الخشب كى ألاحظ خروج الغاز عند نهاية الأنبوبة. وكان معى فى غرفتى بالمنزل زميل يدعى فتحى جاويش، ثم أشعلت عود ثقاب لأحصل على لهب.. وقد كان.. فقد لاحظت تحول المادة من صورة لأخرى: أى وجدتها.. وكادت الغرفة أن تحترق، ولا تزال أمى تذكرنى بهذه الحادثة حتى يومنا هذا.

وأعود إلى الثانوية العامة وأقول إن الامتحان النهائى فى الثانوية العامة مر بهدوء، وعند ظهور النتيجة وجدت أن تحصيل الدرجات لم يكن متجانسا فى كل المواد، فقد حصلت على أعلى الدرجات فى الكيمياء والفيزياء والرياضيات، وحصلت على درجات أقل فى اللغة العربية والتاريخ، مما يوضح اتجاهى الفطرى وهو دراسة المواد العلمية. وطبقًا للمجموع الكلى للدرجات عرفت أن الفرصة متاحة أمامى للالتحاق بجامعة القاهرة أو جامعة الإسكندرية. وفى ذلك الوقت كانت الحكومة، برئاسة الرئيس جمال عبد الناصر، قد أنشأت عددًا من المعاهد التكنولوجية العالية مثل المعهد الزراعى والمعهد الصناعى والمعهد التجارى. وكان واحد من هذه المعاهد، المعهد الزراعى العالى، قد أقيم فى مدينة كفر الشيخ القريبة من دسوق. ولاعتبارات معينة رغب والدى فى أن ألتحق بهذا المعهد وأحصل منه على درجة بكالوريوس الزراعة وأنطلق به فى الحياة العملية كمهندس زراعى، ولم يوافق ذلك هوى فى نفسى، فقد كانت أمنيتى أن ألتحق بالجامعة، ومن حسن الحظ أن والدتى وخالى رزق قد أيدا رغبتى ودعما قرارى فى الالتحاق بالجامعة حتى لو تكبدت الأسرة مزيدًا من الأعباء المادية فى سبيل ذلك.

وتقدمت بأوراقى لمكتب التنسيق المنوط بتوزيع الطلاب على الكليات

والجامعات وفقا لمجموع الدرجات التى نحصل عليها فى امتحان الثانوية العامة . وفى ذلك الوقت كانت كلية الهندسة وكلية الطب تقفان على رأس القائمة من حيث مجموع الدرجات المؤهلة للالتحاق بهما ، تليهما كلية الصيدلة ثم كلية العلوم . وبعد أسابيع قليلة تسلمت رسالة من مكتب التنسيق تفيد بأننى قد رشحت للالتحاق بكلية العلوم جامعة الإسكندرية . هزت هذه الرسالة مشاعرى ولم أفكر للوهلة الأولى فى أعباء دراستى الجامعية أو بالدخل المادى الذى سأحصل عليه عندما أتخرج ، وإنما سرحت بخيالى وبفكرى فى المستقبل المشرق ، والدراسات العليا ، وأملى فى أن أكون ذا شأن فى دنيا العلوم .

وكان علىّ أن أنتقل من دسوق إلى الإسكندرية ، لأقيم بمفردى بعيداً عن عائلتى ، فى تجربة جديدة لم أمر بها من قبل . . وهنا بدأت سنوات الإسكندرية .

* * *

لم آت إلى الإسكندرية لدراسة تاريخ المدينة وإنما لأدخل بوابة العلم فيها وهى جامعة الإسكندرية . . من خلال الدراسة واكتساب الخبرات والمعارف الجديدة . ولم تكن الإسكندرية فى واقع الأمر مجرد شاطئ ومصيف وموقع للاستجمام ، وإنما كانت منذ قديم الزمان قلعة شامخة للمعارف والعلوم ، وكانت مقصد كل طالب علم ومعرفة من كل أنحاء العالم . حيث احتلت مكتبة الإسكندرية مكانة بارزة كمنارة للعلم والحضارة فى تاريخ العلوم والحضارة ، وكان يقصدها الباحثون عن العلم والمعرفة من كل الأرجاء وبخاصة منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط . وقد شغلت منذ اليوم الأول لوصولى إلى الإسكندرية فى سنة ١٩٦٣ بالجامعة وإمكاناتها الأكاديمية ، وبطبيعة الحال فإن الحاضر موصول بالماضى ولا انفصال بينهما . وحينما وصلت إلى الولايات المتحدة وعلموا أننى قد تعلمت فى جامعة الإسكندرية بادرونى بالسؤال التالى : من الذى أحرق مكتبة الإسكندرية؟ وهل لمصر أن تقيم مكتبة الإسكندرية من جديد ، وأن تعيد أمجادها مرة أخرى؟ وهل لكم أيها المصريون أن تعيدوا أمجاد أسلافكم من علماء مكتبة الإسكندرية القدامى؟

وحينما أنشأ الإسكندر المقدونى مدينة الإسكندرية فى القرن الرابع قبل الميلاد كان يهدف أن يجعلها مركزا للعلم والحضارة ، والتجارة أيضا للعالم القديم ،

ولتحل محل مدينة ممفيس كعاصمة . . وقد تحقق له ما أراد وأصبحت الإسكندرية مركز الثقافة والعلوم فى العالم القديم كله وعاصمة للثقافة . . وتم ذلك كله بفضل الخيال الخصيب والبصيرة الثاقبة للإسكندر المقدونى وخلفائه البطالسة الثلاثة الذين أتوا بعد الإسكندر مباشرة . وبقدر ما كان الإسكندر الأكبر قائداً عسكريًا فذا ، كان أيضا مهتما بالعلوم والفنون ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى معلمه الفيلسوف اليونانى الأشهر أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م) . وعلى مدى التاريخ لم تتقدم أمة من الأمم بدون إنجازات العلم والعلماء ، وحينما يعى قادة الدول تلك الحقيقة ويؤمنون بها تتقدم تلك الدول وتحتل مكانتها .

ولقد كان لمتحف الإسكندرية ومكتبتها الدور الأكبر فى دعم وازدهار العلوم والتكنولوجيا فاشتهر الكثير من العلماء منهم الرياضى الأشهر إقليدس ، والطبيب المشهور هيروفيلس ، والشاعران ثيوكريتوس وزينودوتس ، والرياضى المشهور أرشميدس صاحب العبارة المشهورة «وجدتها . . وجدتها» ، وأما الذى وجده أرشميدس آنذاك فهو الأساس العلمى لقانون الطفو ، وقد طرأت على خاطره هذه الفكرة فجأة أثناء وجوده فى الحمام ، وعندها خرج مسرعا يصيح بالعبارة الآنفة الذكر . وكان أرشميدس قد درس فيزياء الأجسام الطافية فى كل من الإسكندرية وسيراكيوز فى صقلية . هذا بالإضافة إلى أن بعض أعظم الدراسات العلمية فى التاريخ تمت فى الإسكندرية ، ومن ذلك مثلا قياس محيط الأرض بواسطة الفلكى والرياضى اللامع ايراتوستين . . ثم أخذ مجد الإسكندرية أو شاطئ الحكمة كما صورها ديريك فلاور يخبو بعد تدمير مكتبة الإسكندرية فى الحريق الذى وقع فى سنة ٤٨ قبل الميلاد وذلك أثناء الحرب البحرية للقيصر الرومانى فى زمن كليوباترا ولحقت بالمكتبة أضرار متتالية عبر الزمن . وقد احتفلت الإسكندرية بافتتاح مكتبة جديدة عظيمة البناء وبصفتى عضوا فى مجلس الأمناء لهذه المكتبة ، وكابن من أبناء الإسكندرية فإنى آمل أن يجذب هذا الإنجاز التاريخى العظيم أعظم العقول مرة أخرى إلى الإسكندرية مثلما حدث قبل ألفى سنة .

لقد استهوتنى ، فى واقع الأمر ، جامعة الإسكندرية حتى قبل أن أتعرف على الماضى العريق لمدينة الإسكندرية ومكتبتها ومتحفها العظيمين وأثرهما فى تاريخ العلم والحضارة ، وحتى قبل أن أتعرف على تاريخها الحديث السابق

لثورة يوليو ١٩٥٢ ، وتعود بدايات إنشاء جامعة الإسكندرية الحديثة إلى عام ١٩٣٨ حيث أنشئت كليتان هما كلية الآداب وكلية الحقوق تابعتان لجامعة فؤاد الأول فى القاهرة (جامعة القاهرة) وتلا ذلك إنشاء كلية الهندسة فى عام ١٩٤١ . وتحقيقا لرغبة أهل الإسكندرية فقد أصبحت جامعة الإسكندرية كيانا مستقلا بذاته، وأطلق عليها اسم جامعة فاروق الأول، وكان ذلك فى سنة ١٩٤٢ بعد أن أنشىء بها أربع كليات جديدة للعلوم والتجارة والطب والزراعة. وفى عام ١٩٥٢ تغير اسم الجامعة إلى جامعة الإسكندرية، ومنذ ذلك التاريخ انضمت إليها كليات أخرى جديدة. وكان عدد الطلاب فى العام الجامعى ١٩٤٢ / ١٩٤٣ نحو ألف طالب، أما الآن فيزيد عدد طلاب جامعة الإسكندرية على مائة ألف طالب، مقسمين بالتساوى تقريبا بين الذكور والإناث.

كانت أولى زياراتى لحرم جامعة الإسكندرية بصحبة خالى رزق، وذلك لتسجيل اسمى كأحد الطلاب الجدد بكلية العلوم والكائنة فى حى محرم بك بمدينة الإسكندرية.

وكان ذلك فى صيف ١٩٦٣ ، وأتذكر أن قطرات من الدمع قد تساقطت من مقلتى أثناء زيارتى الأولى هذه، ولم يكن ذلك عن حزن، إنما هى دموع الفرح لرؤيتى حرم الجامعة لأول مرة فى حياتى. . حرم العلم والعلماء والذى تنطلق منه إبداعات العقول فى مجالات العلوم والفنون بأنواعها المختلفة، ووسط الهدوء الذى خيم على حرم الجامعة اصطفت الأشجار والشجيرات على جوانب الممرات التى تخترق أرضية حرم الجامعة. وخصص كل واحد من المنشآت الآنفة الذكر لعلم من العلوم، واحد للجيولوجيا وآخر للرياضيات وثالث للفيزياء ورابع للكيمياء. . إلخ. وما إن انتهينا من ارتقاء الدرج حتى تراءى لنا كل الحرم الجامعى بمنشآته، تلك المنشآت التى ترى بشق الأنفس للمارين فى الشارع. . وتميز حرم الجامعة بمنظره البديع وجماله البسيط.

أذكر هنا عبارة مشهورة للدكتور طه حسين وهى أن «العلم كالماء والهواء». ولقد كان صعودنا وارتقاؤنا إلى موضع الحرم الجامعى كمثل من يرد إلى مصدر الماء والهواء فى هذه الدنيا، ونظرنا حولنا من موقعنا هذا، فإذا بنا نرى بعضا من أساتذة

الجامعة فى لباسهم المعهود المميز : المعاطف البيضاء وقد ارتدوها مع حلل وأربطة عنق أنيقة ، رأيناهم يتنقلون بهمة ونشاط من مبنى لآخر أو من حجرة درس إلى مختبر .

ولابد أن خالى رزق كان فى تلك اللحظات أكثر انفعالا وأكثر تعاطفا معى ، وربما يكون قد قرأ شيئا من أفكارى . . فقد شد من أزرى كعادته . . فى ود وحنان . . وإذا كانت كل العائلة قد سعدت بى وشاركتنى فرحتى وسعادتى إلا أن خالى رزق كان أكثرهم اهتماما ومشاركة لى فى تلك اللحظات من ذلك اليوم الذى حفرت صورته فى ذاكرتى . وفى ذلك اليوم ذهبت بصحبة خالى رزق وتناولنا وجبة إسكندرانية فى مطعم درويش المعروف والكائن على الكورنيش ، وكمساهمة من بعض أفراد العائلة فى تخفيف الأعباء المالية على والدى فقد تقرر أن أقيم فى محرم بك فى ضيافة أحد أقرباء والدى ، ولم يصادف ذلك هوى فى نفسى ، ولكننى آثرت ألا أصد هذا العرض الكريم ، وقضيت فى ضيافتهم بعض الوقت وانتقلت بعد ذلك للإقامة فى غرفة فى سيدى بشر مشيدة فوق الطابق الثانى لمنزل يمتلكه ابن عمتى ويدعى عبد الجواد ، وبسبب بعد هذا الموقع عن حرم الجامعة ، ومن ثم تكبدى مشقة الانتقال ، فقد تقرر أن أقيم فى مدينة دمنهور فى مسكن خالى على . . وهكذا أصبحت لى غرفة مستقلة كما كان الحال فى بيت والدى ، لأستذكر فيها دروسى على خلفية من صوت وموسيقى أم كلثوم المحببة إلى نفسى .

وكان علىّ أن أستيقظ مبكراً لأستقل القطار من دمنهور إلى الإسكندرية وهو قطار جيد وسريع ومنتظم ومتعدد الرحلات . وكنا نحن الطلاب ، نستخدم تذاكر سفر مخفضة الأجرة ، وكان من المألوف أن تجد عدداً كبيراً من طلاب جامعة الإسكندرية من مختلف الكليات ، قد يصل عددهم مائة طالب وطالبة ، وهم يستقلون بصورة منتظمة القطارات من دمنهور إلى الإسكندرية فيما بين السادسة والتاسعة من صباح كل يوم ، وتعود هذه الأعداد الغفيرة من الطلاب بعد انتهاء اليوم الدراسى أى فيما بين الساعة الخامسة والثامنة مساء . الجدير بالذكر أن كثيراً من ركاب هذه القطارات قد احتلوا مناصب مهمة مثل عمر بطيشة الذى تولى رئاسة الإذاعة المصرية .

ومن الأسباب التى يسرت الإقامة فى دمنهور والسفر ذهابًا وإيابًا يوميا فى القطار إلى الإسكندرية شىء محبب وحتى مرغوب أيضًا، فقد كان يشاركنا رحلاتنا اليومية تلك عدد كبير من الطالبات من دمنهور . . وقد تمتع كثير منهن بقدر كبير من الجاذبية والجمال . . وكان الكثيرون من رفقاء رحلاتنا أكثر ميلا وقربا لهؤلاء الطالبات الجميلات، ومن ناحيتى فقد كنت أكثر ميلا لقضاء وقت الرحلة فى هدوء واستذكار دروسى حسب ما قال عمر بطيشة!

* * *

لقد سارت العملية التعليمية، من محاضرات ودروس معملية، فى الجامعة سيرا نموذجيا، وكان كثير من أساتذة الجامعة جديرين بالاحترام والتقدير والإجلال، وكانوا المثل الأعلى والقدوة الحسنة لنا نحن الطلاب، فقد كانوا يتحملون مسئولياتهم تجاه طلابهم بصدق وإخلاص وأمانة مما جعل منهم القدوة الحسنة لنا ولكثير من أساتذة الجامعة فى هذا الوقت، وكان الأساتذة متحمسين للعطاء والبذل عن طيب خاطر مع احترام كبير لعنصر الوقت.

وقد درسنا كل المقررات الدراسية فى السنة الأولى باللغة العربية فيما عدا المعادلات والمكونات والتى كانت تكتب بلغتها العالمية، وفى السنوات النهائية اعتمدنا أكثر على المراجع والكتب باللغة الإنجليزية والتى كانت متوافرة فى مكتبة الكلية. وضمت مقررات الجيولوجيا كثيراً من المصطلحات اللاتينية مثل أسماء الحفريات والمعادن، وكان يجب أن نحفظها عن ظهر قلب، الأمر الذى قلل من جاذبية مادة الجيولوجيا بالنسبة لى.

ومنذ اليوم الأول لى فى الدراسة الجامعية اجتهدت فى تحصيل دروسى لأصل إلى أعلى درجات التفوق أو الامتياز (٨٥٪ فأكثر). وكان لى ما أردت، فقد حصلت بالفعل على تقدير امتياز أو جيد جداً فى كل المقررات التى درستها، ولم يكن ذلك غريبا، فذلك كان من طبيعة الأشياء بالنسبة لى، فقد توافقت المقررات الدراسية التى كنت أدرسها مع ميولى واستعدادى الفطرى، ولم تكن تلك المقررات تشمل التاريخ أو العلوم الاجتماعية أو اللغويات. ونشرت صحيفة الأخبار سطوراً تحدثت فيها عن تفوقى العلمى وأرفقتها بصورة فوتوغرافية لى.

وكـانت تلك هى المرة الأولى التى تنوه فـيـهـا الصـحـافـة عنى وأول مـرة تنشـر صـورتى، وبالطبع شاهد كل ذلك أهل دسوق، وكـان مدعـاة لتفاخرهم بى كـابن من أبناء هذه المدينة، وحصل الكثير منهم على نسخة من الصحيفة المذكورة أو اطلع عليها وسعدوا جميعًا لنجاحى وتفوقى، هذا من الناحية المعنوية، أما من الناحية المادية فقد منحتنى الجامعة مكافأة شهرية (مكافأة تفوق) قدرها ثلاثة عشر جنيها. وكـان مبلغـا ماليا كبيرا فى تلك الأيام. والجدير بالذكر أن مرتب خريج الجامعة وقتذاك كان سبعة عشر جنيها شهريا.

وذهبت إلى دسـوق أثناء العطلة الصـيفـيـة التى تلت العـام الدراسى الأول من دراسـتـى الجـامـعـيـة، وسعدت بقـضـاء وقت ممتع مع عـائلتى، وقـضـيت الشطر الأكبر من تلك الأجازة فى القراءة، وهى أكثر الهـوايات المحببة إلى نفسى وتثير خيالى. وكنت قد حملت معى عددًا من الكتب من بينها الكتب الخاصة بالمقررات الدراسية للسنة الثانية، لأستهل دراستى بتفوق، وكنت تواقا ومتلهفا لمواصلة القراءة، وحرصت على ألا يضيع أى جانب من وقتى، وكنت على اقتناع تام بأن السبيل لمواصلة التقدم والنجاح هو أن يتعلم الإنسان من العباقرة وأن يقتفى أثرهم ويحذو حذوهم. وكـان اسحق نيوتن قد عبر عن ذلك بقوله: «إنما تعود نظرتى البـعـيـدة والعـمـيـقـة للأشـيـاء ومـدلولاتهـا إلى أننى قـد وقـفـت على مناكب العباقـرة..» وكـان اسحق نيوتن قد تعلم من جاليليو وغيره من كـبـار العلماء الذين سبقوه، مما مكنـه أن يواصـل تقـدمه ونجاحـه. ومـن ناحيتى بدأت أقرأ فى تـاريخ المشـاهيـر والعلمـاء وإنجـازاتهم وأدركت أن بحـور العلم ليس لـهـا حدود.

وكنت أحيانًا أستريح من القراءة لفترات وجيزة أستمتع خلالها بمشاهدة برامج التليفزيون، وقـد كنا محظوظين فى أننا اقتنينا جهاز تليفزيون فى بداية ستينيات القرن العشرين ولم يكن ذلك ميسورا لكل الناس فى مدينتنا وقتذاك. وكنت مولعا بركوب الدراجات والسير بها على ضفة النيل وقت غروب الشمس حيث يكون الهواء رطبا محببا إلى النفس، ثم أعود إلى البيت لأشاهد برامج التليفزيون لوقت قصير أستمتع خلاله بأحاديث مشاهير الكتاب والعلماء. وقد سهرت أسرتى مثلها

مثل بقية الأسر المصرية لمشاهدة حفل أقامته الدولة لتكريم البارزين من أبنائها كل فى مجاله، وقد سلم رئيس الجمهورية لكل واحد من هؤلاء جائزته . . ومصر فى واقع الأمر بلد غنية بأبنائها البارزين فى شتى مجالات العلوم والفنون والآداب وغيرها، ففى الأدب طه حسين وتوفيق الحكيم وعباس محمود العقاد ونجيب محفوظ، وفى الفنون والموسيقى محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ وفاتن حمامة . . وفى غير ذلك من مجالات الإبداع محمد حسنين هيكل (الصحافة) وأحمد رياض ترك ومصطفى مشرفة (العلوم) وغيرهم كثيرون . وعاد السؤال الذى ألح على خاطرى قبل ذلك فى أثناء ارتقائى درجات السلم فى أول يوم لى فى جامعة الإسكندرية . . هل لى أن أكون يوما ما واحداً من هؤلاء العلماء البارزين؟ وإن المرء ليعجب فى الوقت الحاضر من مدى أو درجة الجنون التى كنت فيها أو عليها وقتذاك وفى تلك المرحلة المبكرة من العمر . . أو أننى لم أشغل فكرى وبالى بالثروة والمال أو اقتناء سيارة فاخرة أو ما إلى ذلك من متع الحياة المعهودة، ولكن الذى شغل فكرى واستولى على خيالى، هو أن أحصل على العلم وأن أتبوأ مركزاً فى دنياه، والمرء دائماً حيث يضع نفسه . .

لقد مضت سنوات دراستى فى جامعة الإسكندرية على نحو رائع، كان وضعى الدراسى متميزاً للغاية، كما كانت حياتى الجامعية من علاقات وصداقات مع زملائى وأساتذتى، متميزة هى الأخرى .

وكان لدينا إلى جوار العلم وقت كاف للاستمتاع بالبيئة الجامعية من نشاط ورحلات، وإلى جوار أجواء المتعة العامة، كان الالتزام الأخلاقى والامتثال للتقاليد قائماً وصارماً .

وفى صيف عام ١٩٦٧ أعلنت الجامعة نتائج كل الطلاب وذهبت فى ذلك اليوم كما فعلت فى أول أيامى فى جامعة الإسكندرية، بصحبة خالى رزق إلى حرم الجامعة، وتوجهنا سوياً إلى لوحة الإعلانات المدون فيها أسماء جميع الطلاب وتقديراتهم . وقد مررت بناظرى، بشىء من التوتر والقلق، فى قوائم الطلاب الناجحين بحثاً عن اسمى وتقديرى، وفى لحظة وقع بصرنا على الاسم ورتبة النجاح وهى : «رتبة الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى» . وقد عرفت بعد ذلك أن

النسبة المئوية لمجموع درجاتى هى ٩٣٪ . وقد سررت سروراً عظيماً ، واصطحبنى خالى رزق فى ضيافته إلى مكانه المفضل وهو مطعم درويش لتناول طعام الغداء ، ثم عرجنا بعد ذلك إلى أحد الأماكن المخصصة لسماع حفلات أم كلثوم . وبطبيعة الحال كانت والدتى ووالدى فى دسوق فى انتظارنا ليحتفيا بى مثلهما مثل كثير من أهلنا فى مدينة دسوق وذلك بإقامة احتفال كبير .

وكان ترتيبى الأول على الدفعة بجامعة الإسكندرية ، وتم تعيينى وعادل نجيب وزملاء آخرين معيدين بكلية العلوم . وأما ماهر الشيخ رفيق الصف والصديق فهو الآن يعيش فى الولايات المتحدة ، ثم الزملاء الأربعة الباقون وهم سمير السعدنى وعبد المطلب يوسف وعثمان الريس وكمال قنديل والذى كان يشغل منصب عميد كلية العلوم جامعة الإسكندرية فى ذات الوقت الذى تسلمت فيه جائزة نوبل . وبطبيعتى فإننى لا أركن إلى الراحة والتشدق بأمجادى ، ومن ثم فقد شرعت فوراً أبحث فى الموضوع العلمى الذى سوف أقوم بدراسته ، والذى نطلق عليه اسم «نقطة البحث» .

وكمعيدين بالجامعة كنا ملتزمين بتدبير وإدارة حصص الدروس المعملية للطلاب ، وكان هناك ما بين ثلاثين وأربعين طالبا فى الفصل الواحد (أو ماكنا نسميه سكشن) ، وتمثل هذه الدروس المعملية الامتداد الطبيعى للمحاضرات النظرية التى يلقيها أعضاء هيئة التدريس . ولم يكن للمعيدين أن يمارسوا إلقاء المحاضرات ، وإنما يقومون فقط بشرح وتفسير الدروس المعملية والخاصة ، ومن ناحيتى فقد شاركت فى إلقاء بعض المحاضرات ، فبعد أن كان الأستاذ الدكتور رأفت عيسى يلقى محاضراته فى الكيمياء لنحو خمسمائة طالب من طلاب الدرجة العامة ، كان على أن أعيد إلقاء هذه المحاضرات ، وكنت أجمع الطلاب فى قاعة هى «مدرج على إبراهيم» . . وقد اكتسبت بذلك خبرة وسمعة حسنة كمحاضر قادر على تبسيط وتوضيح الموضوع الذى أنا بصدده وأحاضر فيه ، وما زلت حتى اليوم أشعر بسعادة واستمتاع فى تبسيط العلوم - ذلك أننى أعتقد فى ضرورة أن تكون هناك فكرة فى غاية البساطة والوضوح وراء كل مفهوم أو صورة ذهنية أساسية ومهمة ، فإذا ما كانت هذه الفكرة غير واضحة أو مشوشة ، وأضفى عليها الإنسان تعقيداً فمن المؤكد عندئذ أننا لم نفهم هذه الفكرة بعد .

أما بالنسبة للبحث فمن أهم الأمور هو أن تختار مع من تريد أن تعمل .

وبسبب تفوقى وحصولى على رتبة النجاح الأعلى فى القسم فقد حاول الأساتذة أن يستميلونى لأنضم إلى مجموعاتهم البحثية ، والتسجيل لدرجة الماجستير والدكتوراه تحت إشرافهم . ومن ناحيتى فقد كنت ميالا ومعجبا بالبحوث التى يجريها الأستاذ الدكتور رأفت عيسى والدكتور سمير العزبى ، وكانت تلك البحوث تثير اهتماماً شخصياً لدى ورغبة فضولية جامحة . وقد ظننت فى بادئ الأمر أنه بإمكانى أن أشارك هذين الباحثين الشابين النشيطين لإجراء بحوث فى مجال طيف spectroscopy بعض المركبات الكيميائية . وكان الدكتور سمير فى الثلاثينيات من العمر آنذاك ، وكان عائداً لتوه من بعثته فى جامعة يوتا utah الأمريكية بعد أن حصل على درجة الدكتوراه والتحق بالجامعة للتدريس بها .

ولم تكن للدكتور سمير حجرة مكتب خاصة به ، ولكنه عثر على حجرة صغيرة فى المبنى القريب من الكافتيريا . وكانت حجرة بالغة القذارة بصورة يصعب تصورها ، فقد كانت مخزنا للمهملات واتخذتها القوارض ملاذا لها وامتلأت بالأتربة والأشياء المهملة . وكنا نطلق عليها اسم «المخزن» وكان منظرها على الإجمال لا يبعث على السرور ، وقمنا بتنظيفها بقدر الإمكان وحشرنا فيها مكتبا وكرسيين ، ولم يكن لهذه الحجرة من صفات جميلة ولكن أحببنا فيها الخلوة والتى كنا نجد فيها حريتنا فى المناقشات العميقة ، وقد عاد صغر هذه الحجرة علىّ شخصياً بفائدة . . إذ تعلمت الكثير من الدكتور سمير وبخاصة أسلوبه ومنهاجه الدقيق والعميق فى تناول المسائل العلمية وتحليلها بغية الوصول إلى مدلولاتها والقوانين التى تنضبط بها . وبمرور الوقت توطدت العلاقات الحميمة بيننا ، وأصبحنا أصدقاء أعزاء ، وكنا نذهب سوياً لتناول الطعام من الأسماك الطازجة المحببة إلينا وبخاصة المياس والجمبرى فى مختلف مطاعم الإسكندرية ، كما كنا نذهب بصحبة الدكتور يحيى الطنطاوى إلى «أبو قير» لتناول غدائنا فى مطعم «زفيريون» المعروف مرة فى الأسبوع .

وكان الدكتور رأفت عيسى أقدم من الدكتور سمير ، وكان على الدكتور عيسى

أن يختار لى نقطة البحث . والدكتور عيسى حصل على درجة الدكتوراه من ألمانيا فى مجال الدراسات المتعلقة بالأشعة تحت الحمراء ، وعندما عاد إلى مصر أخذ يجرى دراساته على استخدام الأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية والمرئية فى التعرف على المركبات الكيميائية ومتراكباتها ذات الأيونات الفلزية . وكان غزيراً فى إنتاجه العلمى ، ولهذا السبب التف حوله مجموعة كبيرة من الباحثين وطلاب الدراسات العليا ، لأنهم يعلمون أن البحث الذى سيعملون به سيتم نشره ، وبجانب كل ذلك كان الدكتور رأفت شخصًا مشجعًا لتلاميذه ، وكان قريبًا منا ولم يقتر علينا بوقته وفكره كما كان يدعونا لزيارته فى بيته فى الإسكندرية ، وكان يعد لنا الطعام بنفسه ونجلس لنكتب ونناقش أبحاثنا . وكانت للدكتور رأفت مجموعة لها اهتمامان هما العلم وكرة القدم . وكنت مشجعًا لأحد الفريقين الكبيرين فى لعبة كرة القدم ، وكنت حريصًا على مشاهدة مباريات كرة القدم بحماس شديد أمام شاشة التليفزيون فى كل يوم جمعة خلال الموسم الكروى ، وقد مارست لعبة كرة القدم فى دسوق ، أما فى الجامعة فلم يكن لدى الوقت الكافى لأكون واحداً من أعضاء فريق الدكتور رأفت .

وفى ذلك الوقت لم يكن أى من الدكتور رأفت والدكتور سمير فى درجة أستاذ ، وبحسب قوانين الجامعة لا يحق لأى منهما أن يكون المشرف الرئيسى على تسجيلى لدرجة الماجستير ، فذلك يتطلب أن يكون المشرف الرئيسى على الدراسة فى درجة أستاذ ، ومثلهما لم أكن مسروراً بهذا القانون .

وعليه فقد أصبحت الأستاذة الدكتورة تهانى سالم ، رئيسة شعبة الكيمياء غير العضوية ، هى المشرف الرئيسى على الرسالة بحكم وظيفتها بالإضافة إلى الدكتور رأفت والدكتور سمير المشرفين المباشرين على دراساتى ، وشكل هذا الموقف نقطة حساسة وبخاصة فى وقت نشر الأبحاث فى المجلات العلمية المتخصصة . وكنت متفهمًا للموقف وحاولت أن أوفق بين الجميع بقدر المستطاع .

كنت شغوفًا بدراسة المطيافية أو علم الطيف واستخدامه فى دراساتى وبحوثى ، ومن حسن الطالع أنه كان هناك جهاز فوتومتر طيفى (سبكتروفوتومتر) جديد فى القسم ، وسمح لى الدكتور رأفت باستخدامه لمدة زمنية جيدة ، وقد عملت جاهداً على أن أنهى الجزء المعملى من دراستى خلال شهور قليلة .

وكان مقدراً لى أن أستمر فى دراستى بهدف الحصول على درجة الماجستير فى العلوم من سنتين إلى أربع، وبحد أدنى عامين، ولكننى انتهيت من إجراء التجارب المعملية وإعداد الرسالة بعد ثمانية أشهر. ومن الناحية الرسمية فإنه لم يكن يحق لى أن أتقدم برسالتى هذه للحصول على درجة الماجستير قبل انقضاء عامين من تاريخ تسجيلى لهذه الدرجة، ولكن المشرف الرئيسى على رسالتى الأستاذة الدكتورة تهانى سالم وافقت كتابيا على أننى قد أنهيت المطلوب العملى لإنهاء الرسالة. ورغم أن الرسالة لم تدون فى سجلات الجامعة إلا أننى تمكنت بذلك من الاتصال بأساتذة فى الخارج لأجل الدراسة والحصول على درجة دكتوراه الفلسفة فى العلوم. . وفى الوقت نفسه، قمنا الدكتور سمير والدكتور رأفت وأنا بإعداد بحثين من البحوث التى تمثل أول إنتاجى العلمى المنشور والتى ظهرت بين عامى ١٩٦٩ و١٩٧١.

* * *

كنت قد أجريت أبحاثى فى عامى ١٩٦٧ و١٩٦٨ وهى فترة زمنية عصيبة فى تاريخ مصر، إذ كانت فترة حرب والنفوس كانت مكسورة والتفاؤل كان ضئيلاً، وكانت المصالح الاقتصادية والأعمال الحرة قد ضربت فى مقتل، وعانت الأسواق شحا فى كثير من السلع الأساسية مثل قطع غيار السيارات وآلات المصانع وغيرها، وتوقفت السياحة، واستدعى عدد من أصدقائى من الشباب إلى جبهة القتال، وكنت قد أعفيت من أداء الخدمة العسكرية لأننى الابن الوحيد فى أسرتى. . وقد صدمتنا أخبار الهزيمة العسكرية، وجعلتنا فى حالة من عدم الاتزان وعدم التصديق. ففى الأيام الأولى من حرب يونيو ١٩٦٧ أخذت وسائل الإعلام تزف إلينا البشرى بالنصر المبين، وذهبنا فى زى عسكرى لمساعدة المدنيين. . . ثم اكتشفنا بعد ذلك الحقيقة المؤلمة، وأن كل ما كان يقال لنا ادعاءات كاذبة. . . ومازلت أذكر المذيع المشهور الأستاذ أحمد سعيد وهو يبالغ ويعدد انتصاراتنا على العدو.

وكانت الجامعة قد أوقفت الدراسة بالنسبة لطلاب السنوات النهائية لحين انتهاء الحرب، وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر تنحيه عن السلطة، واندلعت المظاهرات

العامة فى كل مكان على أرض مصر تطالب الرئيس بالعدول عن قراره هذا والعودة إلى موقعه . . . وانتابت الأمة صدمة عنيفة وأصيب الشباب بجرح غائر وألم مريع واهتزت مشاعرهم بل زلزلت مشاعرهم زلزالها، وقرر كثير منهم الهجرة. . وهذا سلوك غريب نوعًا ما فى تاريخ الشعب المصرى الذى اشتهر تاريخيًا بحبه الشديد وارتباطه بأرضه. وقد هاجر فى الماضى بعض المصريين فى أعداد قليلة جداً، وكان ضمن هذه الأعداد القليلة عدد محدود جداً من خريجى الجامعة، ولكن فى ظل النكسة وشعور اليأس العارم والظروف الاقتصادية المضطربة والكئيبة قرر عدد كبير من خريجى الجامعات، مكرهين، الهجرة.

وكانت لدى رغبة شديدة لاستكمال دراستى فى الولايات المتحدة الأمريكية، ذلك أننى أحببت الأسلوب الحديث والمنعش الذى لمسته فى دراسة الدكتور سمير العزبى، الذى قضى بضع سنين فى مدينة سولت ليك، وكذلك الدكتور يحيى الطنطاوى والذى عاش هو الآخر بعض الوقت فى فيلادلفيا، مدينة الحب الأخوى كما كان يقول لنا. وقد أكمل كلاهما دراسته لدرجة الدكتوراه فى الولايات المتحدة، الدكتور سمير أكمل دراسته فى جامعة يوتا، والدكتور يحيى فى جامعة بنسلفانيا.

كما أعجبت أيضًا بالدكتور أشرف البيومى والذى درس هو الآخر فى جامعة ولاية فلوريدا بالولايات المتحدة، وقد شجعنى هؤلاء الثلاثة على استكمال دراستى فى الولايات المتحدة وقدموا لى توصيات وتزكية مكتوبة بهذا الشأن. هذا بالإضافة إلى علمى بأن الولايات المتحدة هى فى مقدمة العالم فى الأبحاث العلمية المتطورة، وكان يكفى القول وقتذاك بأن الولايات المتحدة الأمريكية تخطط لإنزال أول إنسان على سطح القمر.

وبطبيعة الحال لم تكن الولايات المتحدة وقتذاك فى وضع يسمح لها بأن تكون صديقة حميمة لمصر، ومن ثم فقد كانت معظم المنح والبعثات الدراسية الرسمية توجه إما إلى الاتحاد السوفيتى أو إلى دول أوروبا الشرقية، ومع ذلك فقد عقدت العزم على أن أذهب إلى الولايات المتحدة وأستكمل دراستى فيها، لأننى أعرف أن أفضل الأبحاث فى مجال تخصصى كانت تجرى هناك، ويمكن أن يكون لى دور فى

هذا العالم البحثى الجديد ـ ويمكن أن يدرك المرء صحة ذلك الاستنتاج إذا ما ألقى نظرة إلى عدد العلماء والباحثين الذين حصلوا على جائزة نوبل فى العلوم، تلك الجائزة التى لم أكن أعرف عنها شيئًا وقتذاك. فعبر تاريخ هذه الجائزة، ومنذ عام ١٩٠١ عندما منحت لأول مرة، استحوذ على نصيب الأسد من هذه الجوائز خلال النصف الأول من القرن العشرين باحثون ينتسبون إلى معاهد علمية ألمانية ثم بريطانية وفرنسية، ولكن بعد الحرب العالمية الثانية تسلمت الولايات المتحدة زمام العالم فى مجال البحث العلمى وحصل باحثوها على النصيب الأكبر من هذه الجوائز اعتباراً من ذلك التاريخ وحتى اليوم.

وبعد استكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير فى جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٨، بدأت أجمع المعلومات المتعلقة بالجامعات الأمريكية، وفى بداية عام ١٩٦٩ تقدمت بطلبات إلى ثلاث جامعات من تلك التى رشحها لى أصدقائى وزملائى من واقع خبراتهم، والجامعات هى جامعة يوتا وجامعة بنسلفانيا وجامعة ولاية فلوريدا، بالإضافة إلى بعض الجامعات الأخرى مثل جامعة كالتك. . واتصلت ببعض الأساتذة الأمريكيين بناء على التوصيات التى أعطانى إياها الدكتور سمير والدكتور يحيى والدكتور أشرف. وذات يوم ربيعى مشمس من شهر أبريل رجعت إلى فيلتنا لأجد خطابا مرسلا إلىّ من الولايات المتحدة بتاريخ ٢ أبريل ١٩٦٩، وتشير الكلمات المطبوعة على غلاف الخطاب بحروف بارزة إلى أنه من جامعة بنسلفانيا فى فيلادلفيا، والتى كنت قد أرسلت إليها خطابا فى الخامس من يناير من نفس العام، وفتحت الخطاب بشىء من التوتر والقلق، بعد أن دعوت الله وتوسلت إليه. . . فإذا بى أجد البشرى فى كلمات محددة واضحة تقول. . «إن لجنة الدراسات العليا بقسم الكيمياء قد أوصت بقبولك. . على أن تبدأ الدراسة فى الخامس والعشرين من أغسطس ١٩٦٩. . » وكانت واحدة من أكثر اللحظات المؤثرة فى حياتى التى اهتزت فيها مشاعرى. . وبطبيعة الحال فإننى لم أكن أعلم شيئًا كثيراً عن الولايات المتحدة الأمريكية من الناحية السياحية ومناطقها مثل جراند كانيون وديزنى لاند أو حتى مسارح برودواى، وكل ما أعرفه هو أننى سوف أعمل فى أحسن المختبرات فى العالم وكافة المكتبات التى تحتوى على أحدث الكتب والمجلات العلمية.

وأخذت أعيد قراءة الخطاب الممهور باسم الدكتور دونالد فتس مساعد رئيس القسم، وعرفت أن هناك مفاجآت سارة وأخبارا مدهشة فى انتظارى، ذلك أننى سوف أحصل على إعفاء كامل من رسوم الدراسة بالإضافة إلى أن الجامعة سوف تقدم لى راتبًا سنويًا مقداره ٢٧٠٠ دولار، بالإضافة إلى منحة دراسية للأبحاث الصيفية مقدارها ٩٠٠ دولار. . وأن هذه المنح سوف تستمر تصرف لى طالما استمرت دراساتى فى تقدم. . وأخذت أعيد وأعيد قراءة هذا الخطاب أكثر من اثنتى عشرة مرة، وبالطبع كنت على استعداد لأن أطير على الفور لأصل إلى هذه الجامعة وأبدأ دراستى، ولكن أنى لى ذلك وهناك العديد من الشروط والقواعد التى تحتم على طلاب درجة الماجستير ألا يغادروا أرض الوطن قبل انقضاء عامين كاملين على تاريخ تسجيلهم لدرجة الماجستير، مما يعنى أنه يتحتم على أن أنتظر بعض الوقت. وكما ذكرت آنفا فإننى كنت قد أكملت بالفعل دراستى لدرجة الماجستير، أضف إلى ذلك فإن المنحة الدراسية المقدمة لى من جامعة بنسلفانيا هى منحة مدفوعة الأجر، بمعنى أنها لن تكلف الحكومة المصرية شيئًا، فهى منحة دراسية مجانية من جامعة أمريكية وليست بعثة دراسية على نفقة الحكومة المصرية. . إنها إذن مشكلة بيروقراطية.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل كانت هناك مشكلة طريفة أخرى، إنها «الخطاب المجهول» وهو كالجندى المجهول يحتاج إلى شجاعة. . فالخطاب الذى بين يدى هو خطاب موجه إلىَّ شخصيًا من جامعة بنسلفانيا، ولم يوجه إلى جامعة الإسكندرية. . ولم تكن لوائح الجامعة تسمح بمثل هذه المنح الدراسية والتى تسمى «منح شخصية مباشرة». . ولحل هذه المشكلة طلبت إدارة جامعة الإسكندرية أن تقدم جامعة بنسلفانيا منحتها هذه إلى قسم الكيمياء بجامعة الإسكندرية، ثم يقوم قسم الكيمياء باختيار الشخص المناسب لهذه المنحة، وبالطبع كان ذلك شيئًا مستحيلاً بالنسبة إلى جامعة بنسلفانيا. . إذ كيف تقدم هذه الجامعة منحة بهذا السخاء إلى شخص غير معروف لديهم، أى لا يعرفون عن مؤهلاته العلمية شيئًا؟ وكتبت إلى الأستاذ الذى خططت لإجراء دراساتى تحت إشرافه وهو الدكتور روبن هوكشتراسر أشرح له هذه المعضلة البيروقراطية والتى لا يعلم عنها شيئًا، والتمست

أن يكتب إلى جامعة الإسكندرية مباشرة. وقد وافق هذا الأستاذ تلطفًا وتكرمًا وأرسل الخطاب المطلوب إلى جامعة الإسكندرية، وأوضح بصراحة أن القرار النهائى فى شأن هذه المنحة هو قراره.. بمعنى أنه فى حالة ترشيح جامعة الإسكندرية شخصًا آخر غير أحمد زويل تلغى المنحة. وأعطيت هذا الخطاب إلى رئيس قسم الكيمياء، وبدأت الإجراءات الإدارية تأخذ طريقها.. وفى النهاية حصلت على توقيع كل المعيدين بقسم الكيمياء بما يفيد أنهم لا يرغبون فى التقدم للحصول على هذه المنحة. مما يعنى ضمنا أننى الوحيد المتقدم للحصول عليها وذلك قبل أن يرشحنى القسم لنيل هذه المنحة.

وأخذت جميع المستندات بما فيها طلب للسماح لى بأجازة اعتيادية لمدة شهرين، وهى المدة المتبقية من العامين المطلوبين للذهاب إلى الخارج حسب القانون، لأقدمها إلى إدارة الجامعة ومن ثم إلى وزارة التعليم العالى بالقاهرة، وذهبت إلى مبنى إدارة جامعة الإسكندرية فى الشاطبى على الكورنيش لمقابلة رئيس الجامعة لأنه الشخص الوحيد الذى يمكنه أن ينهى كل هذه الإجراءات بإعطاء موافقته.

وما إن دخلت الدور الأول فى المبنى حتى وجدتنى وجهًا لوجه أمام الموظف المنوط بتسلم وتسليم بريد الجامعة (ولعل اسمه عم محمود) وعندما شاهدنى فى زى كامل برباط عنق وأحمل ملفًا مملوءًا بالأوراق أدرك أننى معيد بالجامعة، وعندئذ استوقفنى.. وأثار ذلك دهشتى.. فقلت على الفور «أنا أحمد زويل وأعمل فى وظيفة معيد بقسم الكيمياء بكلية العلوم»، وأردفت قائلا.. «وإنى على عجل لمقابلة رئيس الجامعة»... فقال الرجل بعد أن أضحكته جرأتى وشجاعتى.. «وهل تظن أنه بإمكانك أن تقابل رئيس الجامعة بهذه البساطة؟» وفوجئت بهذا السؤال الاستنكارى وارتبكت بعض الشيء، واستجمعت شجاعتى وأخذت أردد «أنا أريد.. أن.. أقول له شيئًا»... ويبدو أن كلماتى هذه قد لقيت عند الرجل قبولا ما.. فقال: «حسنا، احمل هذا الكيس المملوء بخطابات تخص الجامعة وتعال معى»، فحملت كيس البريد وصعدت مع الرجل درجات السلم إلى الدور العلوى، وعندئذ قال: «اجلس هنا بعض الوقت وانتظرنى.. لأنظر ما إذا كان من الممكن أن يراك رئيس الجامعة».. ومن ثم ذهب الموظف المنوط ببريد الجامعة إلى

مكتب رئيس الجامعة نيابة عنى، بينما بقيت أنا جالسًا خارج الأبواب الموصدة فى انتظار السماح لى بالدخول.

وفى ذلك الوقت كان رئيس الجامعة فى خارج البلاد. أما نائبه الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الصدر فقد كان موجودا فى مكتبه. . وبعد تحذير موظف البريد وحديثه الذى يوحى بأن مقابلة رئيس الجامعة ليست بالأمر الهين، وبمرور الوقت. . زاد قلقى ووجدتنى أرتجف كالدجاجة وقلت. . «يا دكتور عبد الرحمن. . أنا أحمد زويل، وقد حصلت على بكالوريوس العلوم فى الدرجة الخاصة فى الكيمياء بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى، وقد حصلت على منحة مجانية من جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة للحصول على درجة الدكتوراه. . . والجامعة لا تتحمل أية نفقات. . . وكل النفقات على حساب جامعة بنسلفانيا. . . وكل ذلك متوقف على شرط واحد وهو أن أسافر خلال شهر أو اثنين حتى ألتحق بالدراسة فى الميعاد المحدد. . وكل ذلك متوقف على توقيع سيادتكم».

والدكتور عبد الرحمن الصدر طبيب ناجح وبجانب خبرته فهو رجل مهذب ولطيف ويلفت الأنظار بدماثة خلقه، وبعد أن فكر فى كلماتى وخطابى لبرهة من الوقت. . أومأ برأسه وأخذ يفحص أوراقى. . ثم قال «سأوقع على هذه الأوراق. . وسوف تسافر. . ولكنك لن تعود ثانية». . . وكانت كلماته بمثابة نبوءة تحققت بالفعل، ذلك أننى لم أعد لألتحق بهيئة التدريس بجامعة الإسكندرية.

بعد أن وقع الدكتور عبد الرحمن على أوراقى فى صيف ١٩٦٩ حصلت على الموافقة النهائية على السفر، وبهذه الخطوة تمكنت من رؤية الضوء. . ضوء الأمل. . فى نهاية النفق، وأصبحت فى وضع يسمح لى بالتفكير فى صورة الحياة الجديدة التى أنا ذاهب إليها فى فيلادلفيا. وعندئذ كان من الطبيعى أن أكون فى حيرة من أمرى، هل أسافر بمفردى أم أتزوج وأسافر مع زوجتى؟ وكان من المألوف بالنسبة لجيلى من الشباب وقتئذ أن يتزوج الشاب وهو فى العشرين من عمره أو بعدها بقليل، تزوج كثيرون من المعيدين وسافروا بصحبة زوجاتهم فى بعثاتهم الدراسية فى الخارج، وتزوج بعض المعيدين من طالبات بالجامعة أو من زميلاتهم من المعيدات. وكشاب فى الثالثة والعشرين من عمره كنت محط إعجاب بعض

الطالبات بالإضافة إلى إعجابى بهن، وبسبب خلفيتى الثقافية وتقاليدى المحافظة كنت أبحث عن فتاة جادة محترمة وبالطبع جذابة . . وفى مثل هذه المرحلة من العمر، وبخبرة الشباب البسيطة فإن الشاب لا يكون لديه المفهوم الواضح للمعنى الحقيقى للحب. ومن ناحيتى فلم أكن متأكداً من أننى كنت أدرك رغبتى إدراكًا جيداً.

وخلال حصص الدروس المعملية والتى يكون فيها المعيد قريبًا من الطلاب والطالبات بدرجة كبيرة، شد انتباهى بعض الطالبات بذكائهن وجمالهن، وكان من الطبيعى أن أفكر فى أن أخطب إحداهن، وهذا ما حدث، فقد كانت ميرفت واحدة من طالباتى فى السنة الثالثة فى الدروس المعملية وأيضًا فى محاضراتى، وبعد سنة حصلت على بكالوريوس العلوم فى الكيمياء والفيزياء، ولم تكن ميرفت من الطالبات المستهترات اللاتى يتحدثن بحرية مطلقة ويطلقن الضحكات بمرح، ولكنها كانت طالبة وقورة وجادة، وقد أعجبت بها وبصفاتها وتقدمت طالبًا يدها من والدها، وحضر والدى ووالدتى وخالى إلى الإسكندرية، واجتمعت الأسرتان لمباركة الخطبة.

وفى الحقيقة لقد تعجلنا، بل ركضنا لإتمام الزواج، ولم يكن هناك وقت كاف لأن يتعرف كل منا على الآخر، وحتى التواد كان يجرى بيننا بطريقة رسمية إن شئت القول، وكنت فى عجلة من أمرى لإتمام الزواج حتى تصحبنى زوجتى فى السفر إلى أمريكا، ولم يكن لدى رغبة أو استعداد للانتظار حتى أحصل على الدكتوراه ثم أتزوج، وكان مشهداً رومانسيًا أن أطير بصحبة عروس جديدة إلى مكان جديد فى تجربة جديدة وهذا ما حدث لى، فقد تم زفافنا فى حفلة بسيطة قبيل سفرنا إلى الولايات المتحدة بأيام قليلة. وكان ذلك فى شهر أغسطس، أى بعد الموافقة على الزواج بشهر واحد فقط، ومن ثم لم نمر بفترة الخطوبة المعتادة. وكنت وقتذاك فى الثالثة والعشرين من عمرى وهى تصغرنى بعام واحد. وبالعودة إلى الماضى أدرك أن كل ذلك حدث على عجل وكنا تحت عدة ضغوط كما لم تكن لدينا الفرصة الحقيقية لأن يتعرف كل منا على الآخر. ورغم كل ذلك فقد كان كل منا معجبًا بالآخر ويجله، الأمر الذى أبقى على عنصر الاحترام قائمًا فى علاقاتنا، حتى عندما أيقن كل منا أننا لم نكن على قدر من الانسجام كما صورته لنا أحلامنا

الوردية قبل ذلك. وعموما فإن ميرفت إنسانة ممتازة ونقية ولكننا شخصان مختلفان تمامًا. .

وبعد أن حصلت على كل المستندات الخاصة بسفرى قمت بشراء تذاكر سفر بالطائرة لى ولزوجتى وحصلت على تأشيرات الخروج والتى لم يكن الحصول عليها وقتذاك بالأمر اليسير، ثم إثبات المبلغ المالى المسموح لنا بحمله معنا، على جواز السفر لكل منا. . وحينما غادرنا أرض الوطن كان الحد الأقصى المسموح به أربعين دولارًا لكى نبدأ حياتنا فى الولايات المتحدة. وكانت ميرفت أكثر منى إتقانًا للغة الإنجليزية، ذلك أنها تعلمت فى المدرسة الأمريكية قبل التحاقها بالجامعة. وفى رحلتنا من القاهرة إلى فيلادلفيا كان لدينا الكثير من الوقت فى داخل الطائرة، وفى المطارات التى توقفنا فيها لبعض الوقت - ترانزيت - حيث توقفنا فى روما وباريس ولندن، وكانت ميرفت تدون ملاحظاتها على الرحلة.

وبطبيعة الحال لم يكن باستطاعتنا أن نتصور ما الذى يمكن أن يكون فى انتظارنا عند وصولنا فيلادلفيا، ولم تكن معنا نقود كافية، وليست لدينا شقة نقيم فيها، إذ لم تكن جامعة بنسلفانيا قد منحتنى نقودًا بعد. . وكان من الصعب أن يتخيل المرء فى مثل هذا الموقف وتلك الحالة ماذا يمكن عمله؟ هذا بالإضافة إلى أنه ليس لنا أقرباء فى أمريكا يمكن أن نلوذ بهم عند الشدة أو نلجأ إليهم عند الحاجة. . وقد همست فى أذن زوجتى ونحن بالطائرة فوق المحيط الأطلنطى قائلا: «نحن ذاهبون لوحدنا (سولو)». . ثم أردفت قائلا: «ولكن إلى أرض الفرص». وبهذه البداية أكون قد تركت أرض مصر - بين النيل والبحر الأبيض المتوسط - ذاهبًا إلى أرض جديدة لأشق طريقًا جديدًا.